الحبكة الفنية

obeikandl.com

obeikandl.com

لاريب أن الخبرة الطويلة لنجيب الكيلانى فى ميدان الكتابة القصصية قد أعطته قدرة على بناء قصصه ورواياته بصورة جيدة ومحكمة ومتماسكة ..لذا تجد المادة القصصية فى رواياته تجمعها وحدة منسجمة مترابطة ويستطيع القارىء – على حد قول بعض الباحثين – أن يتتبعها بشوق وفهم دون أن يعانى صعوبة ما فى تفهمها ورصد أحداثها . (١).

وروايات نجيب الكيلانى من النوع الذى يطلق عليه القصة التمثيلية *dramatic novel* حيث يكون التفاعل على أتمه بين الحوادث و الشخصيات ، فالحادثة التى تجترحها الشخصية ، سرعان ما تصبح عاملاً مؤثراً فى القصة ، قد يمس الشخصية نفسها مساً لينا ،أو عنيفاً عاتيا .... (٢).

لذا فإن روايات نجيب الكيلانى تحقق التفاعل بين الشخصيات وبناء الحوادث فى إطار متماسك ومتنامٍ ، بحيث تترابط الحوادث بالشخصيات ..ترابطاً طردياً ،يجعل نمو كل منهما مرتبطاً بالآخر ارتباطاً وثيقاً .

إن نمو الحوادث يتسق مع التتابع الزمنى ، قليلة هى الحوادث التى تبدو معقدة ، أو تتكشف من خلال سياق متقاطع (رأسياً وأفقياً) .. إنها أى الحوادث تسير فى اتجاه أفقى بصفة عامة وهو ما يجعلها بصورة ما أقرب إلى الحوادث المعقدة أو الغريبة أو المثيرة ..ولكنه يقدم واقعاً يومياً أو اجتماعياً مألوفاً يعيشه الناس ، ويمرون به بصورة مشوقة تحفز على المتابعة والتأمل والتفكير وتكوين موقف معين تجاه الواقع وحوادثه ،

١ - محمد يوسف نجم ، فن القصة ، ٣٤.
٢ - السابق ٤٩.

أو على حد تعبير بعض النقاد " إن الروائى يحتاج إلى استغراق مشاعرنا الذاتية معه قبل أن يكون فى مقدوره تحقيق أفضل نتائجه الدرامية والخيالية "(١).

إن الكاتب ينتخب مادته الروائية من الحوادث التى يحفل بها الواقع ، ويقنعنا بإمكان حدوثها ، ويضعها فى إطار منظم ليفسر بها الحياة من حولنا ، ولاريب أن نجيب الكيلانى قد فعل ذلك فى رواياته الأربع ، وفقاً لمقولة " جورج مور" عن " فن كتابة القصة " الذى يعّده تتابعاً إيقاعياً منظماً للحوادث فى أسلوب إيقاعى منظم للعبارات (٢).

ويتجلى التتابع الإيقاعى المنظم للحوادث والأسلوب الإيقاعى المنظم للعبارات فى بناء الروايات بطريقة فنية جذابة ، إذا وقفنا عند كل رواية على حدة ، مع الأخذ فى الحسبان أن روايتى " اعترافات عبد المتجلى " و" امرأة عبد المتجلى " يعدان بناء موحدا ،جزؤه الأول الرواية الأولى ، جزؤه الثانى الرواية الثانية .

ويلاحظ بصفة عامة أن البناء الروائى يقوم على ما يسمى بالحبكة المركبة التى تبنى على أكثر من حكاية . ومع بساطة الحوادث ، فإننا فى كل رواية نطالع أكثر من حكاية تمضى بالتوازى مع الحكاية الأساس أو تتفرع عنها غالباً .

وتقوم رواية " اعترافات عبد المتجلى " على تكوين شخصية الشاب " عبد المتجلى القصاص " الموظف الصغير بمجلس القرية ويحمل دبلوماً متوسطاً فى التجارة ، ولكنه مثقف يقرأ ويتعلم ويفكر ، وتذهله حادثة سرقة الونش العملاق من أكبر ميادين القاهرة وسط الزحام والناس ورجال الأمن ، ولا تستطيع الأجهزة المعنية العثور عليه ، فيقرر عبد المتجلى أن يحصل على إجازة من عمله ويذهب إلى القاهرة ليتابع قصة الونش ويبحث عنه بنفسه وفى القاهرة يكتشف عالماً جديداً بالنسبة له ، ويخوض عباب مآزق ومحن

١ - روجر هيكلى وصلاح رزق ، فى قراءة الرواية ، ١٣.
٢ - انظر : طه محمود طه ، القصة فى الأدب الإنجليزى ، ١٣٣.

تنتهى به إلى السجن والتعذيب ، ومن ثم يعود إلى قريته ، وقد يبدو حدث البحث عن الونش غير مقنع بصورة ما ،أو خيالياً فى مفهوم البعض ، وبخاصة بعد أن عمّ الإحباط المجتمع بأسره ، وسيطرة عدم المبالاة على الناس وانشغالهم بالبحث عن توفير رغيف الخبز أو أساسيات الحياة ، وبعد أن تكفلت الدولة بإدارة كل المرافق ، وتركت للناس شؤونهم الشخصية فقط ، بل إنها تتدخل فى هذه الشؤون أحياناً (تحديد النسل مثلاً).

بيد أن نموذج عبد المتجلى موجود ، وقائم داخل المجتمع مع ظروف الإحباط وعدم المبالاة والانشغال بالذات ، وإن لم يعبر عن نفسه تعبيراً إيجابياً كما فعل عبد المتجلى ، فالكثيرون يحلمون بالتغيير ، ويتحرك فى أحشائهم الرفض للفساد والقهر والعفن وكل ما هو شأنه .. صحيح أن القلة هى التى تبادر إلى الفعل أو التعبير العملى عن الفكر ، ولكن الأغلبية مع ظروفها الصعبة تحلم وترفض وإن كان ذلك يتم فى صمت نتيجة للخوف أو أسباب أخرى .. ومن ثم فإن نموذج عبد المتجلى ممكن التحقق والالتقاء به فى المجتمع بصورة وأخرى .

إن تكوين عبد المتجلى جعله فى السابق واللاحق يرفض أشياء فاسدة وغير طيبة فقد تصدى مثلاً لعملية تجريف الأرض الزراعية ، ومع أنه ذاق علقة ساخنة فى قسم الشرطة ، إلا أنه نجح فى إيقاف العملية ومنع تجريف الأرض فى قريته ، وانتقل تجار الطين إلى قرية أخرى .

وهكذا يكون موقف عبد المتجلى فى بحثه عن الونش العملاق عملاً طبيعياً وحدثاً مقبولاً ، والمهم هنا أنه يجد القاهرة مدينة بلا قلب ، الناس يلهثون ، ولا أحد يهتم بأحد ، يرى العناء بعينيه ، ويصرّ على مواصلة عملية البحث بلا جدوى ، ولكنه يتعرف على جوانب سلبية فاسدة فى حياة الناس : العصابات والحشاشين والمادة التى تحكم كل

شيء حتى قضاء الحاجة أصبح له ثمن " ومع ذلك يلتقى بعناصر طيبة تساعده إلى حد ما بعد نفاذ ما معه ، فخادم المسجد يؤويه على السطح ، وأم صابرين التى تعطف عليه فيتزوجها ، ويتعرف على شيخ الخلوة الذى يمنحه الحكمة .

ويستطيع عبد المتجلى بعد بحث ، أن يتوصل إلى أن الونش قد تمّ تقطيعه فى إحدى الورش الميكانيكية ، وبيعه إلى تجار فى الصعيد ، فيستعد للسفر هناك ، وهناك تتصاعد الأحداث وتتلاحق ، بعد أن يتابعه أحدُ المخبرين ويتقرب إليه ، فينطلق لسان عبد المتجلى بالحديث عن الفساد العام ، فيقوده المخبر إلى " لاظوغلى " ، ويسأله عبد المتجلى :

- أين نحن ؟؟
- بين فكّى الأسد .... (١).

ويبدأ الاستجواب والتعذيب الذى يكشف عن توتر ورغبة قاهرة فى القمع ، وهو ما يدفع الضابط المستجوب إلى أن يعدّ موضوع الونش " مجرد ستار يختفى وراءه عبد المتجلى الحقيقى عبد المتجلى المتطرف ذو الوجه الإرهابى القبيح ، الذى ينقل الرسائل والأوامر بين الفصائل الإسلامية المتطرفة فى المحافظات والقاهرة وأسيوط ... (٢).

وفى محنة التعذيب يكتشف عبد المتجلى عالماً آخر أصم لا يسمع صراخه وتأوهاته ، حيث السياط والعصى والأيدى والألسنة تعزف مقطوعة دامية رهيبة تنداح موجاتها الوحشية فى روحه وجسده وعقله ، وفى لمحة خاطفة عرف معنى القهر

١ - اعترافات عبد المتجلى ، ٨٩.
٢ - السابق ٩٨/٩٩.

الحقيقى ، وفهم لأول مرة فى حياته معنى الكفر ، وبدا له أن الانتماء الحقيقى ، والصدق الإنسانى يعنى الموت فى كثير من الأحيان ...." (١).

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد ، بل امتد الأثر إلى الناس فى القرية حيث صاروا يفرون من بيته ومنه كما يفرون من الوباء ، وتوقفت المجاملات الإنسانية بالنسبة لأمه وأخته ، وقالت الأم :

" لقد جرّ على نفسه المصائب .. لكن لا بد أن نوكل له أحد المحامين ..ولا مانع أن نبيع الأرض لنشترى رجلنا " (٢).

وهكذا تتوالى أحداث الرواية حتى يتم الإفراج عنه ، ويعود مع زوجته إلى القرية ليبدأ مرحلة جديدة .

فى خلال هذه الأحداث ، تظهر حكايات أخرى تصب غالباً فى إحكام البناء الروائى ، وتشويق القارىء للمتابعة ، وتخدم فى الوقت نفسه القصة الأصلية أو الإنسانية فهناك تجريف الأرض الزراعية التى سبقت الإشارة إليها ، وقصة خطوبة أخت عبد المتجلى لأحد شبان القرية ، وحكاية الحشاشين ، وحكاية أم صابرين مع زوجها السابق ، ومواقف عبد المتجلى مع العمدة وإمام المسجد ...إلخ ، كلها تبرز الحدث الأساسى وتضيئه وتحقق التشويق الذى تسعى إليه الرواية من أجل بلورة شخصية بطل الرواية " عبد المتجلى القصاص " فى كفاحه للبحث عن الونش ، أو بمعنى آخر الحديث عن سلبيات المجتمع ومآسى القهر !.

أما الرواية الثانية ، أو الجزء الثانى من الرواية ، " امرأة عبد المتجلى " ، فإن البناء الروائى تتصاعد أحداثه ، بل يبدو أكثر دراماتيكية ، لطبيعة ما جرى فيه لعبد

١ - السابق أيضاً ، ١٠٠/١٠١.
٢ - نفسه ، ١٠٢.

المتجلى ، وإن حاول الكاتب أن يوهمنا أن الموضوع يدور حول امرأته "أم صابرين " بالدرجة الأولى .

تقدم لنا الرواية امرأة عبد المتجلى ، نقيضاً لزوجها ، ففى الوقت الذى يشاقق فيه عبد المتجلى المجتمع بسبب الفساد والقهر ، تحاول " أم صابرين " أن تتناغم معه ، وتتعامل معه بسلاح المادة ، بل تسيطر على من بيدهم زمام الأمور والسلطة فى القرية والمدينة عن طريق المال ، وتعمل على مواجهة ذئاب التجارة والفساد بأساليبهم ومنطقهم ..وإن كانت تقع فى النهاية مضرجة بدمائها ضحية للمجتمع الفاسد وأسلوبه ! .

لقد كان زواجها من عبد المتجلى ، وسيلة التصاعد الدرامى فى الرواية ، حيث انتشرت الشائعات فى القرية حول شخصيتها ، وكتب العمدة تقريراً سرياً وضعه فى غلاف حكومى أصفر مختوماً بالشمع الأحمر وبعث به إلى جهات الأمن مما ترتب عليه اعتقال عبد المتجلى وخوض تجربة جديدة وقاسية – وعندما عاد إلى القرية ،وبدأ الإقامة حيث تبدأ الرواية الثانية ، أرادت أن تحسن دخل زوجها والأسرة ، ولأنها كانت تبيع فى كشك بالميدان الذى سُرق منه الونش بمدينة القاهرة ؛ فإن مهارتها فى التجارة وذكاءها الفطرى دفعاها إلى التفكير فى مواصلةالتجارة داخل بيتها أولاً ، ثم التوسع شيئاً فشيئاً حتى صار متجراً كبيراً يحمل اسم " أم صابرين " وصارت من كبار رجال أو سيدات الأعمال فى القرية ، بل المدينة ، مما عرضها لحنق الخصوم أو المنافسين ، وكان أول رد فعل لهم هو إحراق بيت عبد المتجلى ، ويترتب على ذلك الدخول فى صراع مع المتنافسين من ناحية ، وصراع مع زوجها من ناحية أخرى ، وتعتمد فى صراعها المزدوج على المال الذى يخضع الجميع :

".. لا أستطيع أن أتعامل بعملة غير عملة العصر ..الجنيه المصرى ينخفض والدولار يرتفع ، لكنك تستطيع أن تشترى النفوس بأى منهما ..وأنا الحمد لله أصبح لدى رصيد من العملة المحلية والأجنبية ، لا يجب أن نتصور أن أمامنا عقبة برغم الحريق المدمر الذى أصاب مقرنا ..والبادى أظلم ..والحديد بالحديد ..".

"- ذلك طريق الندامة .

- بل السلامة .

- هذه المرة فقدنا بيتاً وبهائم ، أما المرة القادمة ، فقد يفقد أحدنا حياته ، وتلك خسارة فادحة لن يعوضها شىء..." (١).

وكأن عبد المتجلى ، كان يتوقع النهاية التى دفعت أم صابرين حياتها ثمناً لها وكأن المجتمع كله سيدفع حياته الآمنة المطمئنة ثمناً لمنطق العصر أو عملة العصر !.

ومع ما لمسه عبد المتجلى من تغير فى مستوى حياته وإحساسه بالثراء والغنى ، وعيشه عيش الرخاء والترف ، فقد كان إحساسه الداخلى بالتناقض مع ما تفعله زوجه سبباً لتوتر دائم فى علاقاتهما انتهى بالطلاق فى لحظة غضب عارمة .

لقد دفع الرخاء عبد المتجلى إلى دخول الانتخابات اعتماداً على حب الناس له قديماً ، وتصور أنه سيفوز فوزاً ساحقاً على منافسيه ، ولكن النتيجة كانت هزيمة ساحقة فأصيب بصدمة عنيفة ، وتصور أن الحكومة هى السبب ، ولم يدرك أن تغيره أو قبوله بالتغير هو الذى أسقطه ، وقد واجهه شيخ الجامع بذلك:

١ - امرأة عبد المتجلى ، ٦٩.

obeikandl.com

" زوجتك أقامت امبراطورية للشر. إن السوق السوداء طريق إلى جهنم .. والاحتكار ملعون فى الكتاب والسنة ..والعمل على رفع الأسعار إجحاف بحق الفقراء .. وشعبنا مسكين – لقد أسقطك الشعب يا عبد المتجلى "(١).

ومع أن المياه عادت إلى مجاريها مرة أخرى بين عبد المتجلى وامرأته إلا أنه عاش التمزق بين ما آمن به من قيم ومثل ترفض الفسادوالظلم والاستغلال والرشوة والتعامل مع المفسدين بمعنى تقبلهم والتناغم معهم ، وما تقوم به زوجته من خلال امبراطوريتها التى تتوسع باستمرار..لقد بنت بيتاً حديثاً بعد الحريق الذى أصاب منزلهم المتواضع ، وواصلت مسيرتها الظافرة فى التجارة ، والبحث عن الجناة الذين أحرقوا البيت وقد توصلت إليهم وتعاملت معهم بما يقتضيه الموقف ولكن عبد المتجلى كان يقارن دائماً بين حياتين :

" حياته الأولى الهادئة الفقيرة المتواضعة كانت أفضل كثيراً مما يعانيه اليوم ، بل إن وقوعه بين براثن رجال الأمن السياسى ، وهو يبحث عن الونش ، كانت أخف وطأة مما هو عليه الآن ..القناعة والبساطة حققت له الأمن والسلام ، وعندما انتعش اقتصادياً واجتماعياً بدأت تتوافد عليه الأحداث القاتلة والهموم والمخاوف "(٢)...وكثيراً ما يعلن عن إحباطه وأساه ، وإحساسه بالإخفاق " لا الونش عاد ، ولا أيام الصفاء دامت ولا الدنيا تغيرت إلى الأفضل "(٣)...بل إنه أصيب فجأة بضغط الدم ، نتيجة التوتر والاضطراب التى يعيشها .

١ - امرأة عبد المتجلى ،٨٢.
٢ - السابق ٦٧.
٣ - السابق ٣٤.

ومن الطريف أنه فى هذه المرحلة يعلن عن رغبته فى تكوين حزب يسميه " حزب الصابرين " لأن الصبر ألصق صفة بشعبنا منذ آلاف السنين ، أو ينشغل بتكوين فرقة مسرحية يحاول من خلالها إصلاح المجتمع ، ولكنه لا يحقق نجاحاً يذكر ، فى الوقت الذى تستمر فيه المسيرة التجارية الناجحة لزوجته .

تكشف الأحداث عن حجم المافيا التى تتحكم فى التجارة والسلطة ، وتفرض شروطها على الجميع ، ومن يخالف يدفع الثمن غالياً ، وهو حياته فى الغالب ، ثم إنها – أى المافيا – تمارس الانحلال والفساد فى أبشع صورهما .

ولأن امرأة عبد المتجلى ، خرجت على المافيا إلى حد ما فقد كان القتل من نصيبها ،وقد اتهم عبد المتجلى النظام – يقصد الطوارىء – بقتلها ، ورأى أن موتها يميت الحب أيضاً ، وأن دمها سوف يشعل الثورة التى لن تبقى ولن تذر ، ٠ويعدّ نفسه منذ موتها رجلاً متطرفاً ، ولكن العمدة يعده ملتاثاً ، ويطلب إحالته إلى أخصائى أمراض عقلية حماية له ولأسرته ..ولا يزال التحقيق مستمراً ! لأن المعركة بين الخير والشر لم تحسم بعد !.

هكذا تنتهى رواية " امرأة عبد المتجلى " أو الجزء الثانى من " اعترافات عبد المتجلى " ، ويبدو تتابع الأحداث من خلال شخصية أم صابرين وزوجها عبد المتجلى متدفقاً ومثيراً ، ولعل هذا كان من وراء ترقيم فصول الروايتين معاً ،دون أن يضع لها الكاتب عنواناً

لقد أتاح السرد عن طريق ضمير الغائب فرصة كبيرة للمؤلف كى يحشد تفاصيل الأحداث فى تتابع منظم يثير أشواقنا لمتابعته ، والتعرف على نتائج الأحداث ومصائر الشخصيات دون أن نشعر بالملل أو السأم ، وهو الشىء ذاته الذى لمسناه فى روايته " قضية

أبو الفتوح الشرقاوى "حيث إن كثيراً من التفاصيل وراء الحدث الأكبر فى الرواية ، وهو سقوط سيارة فى الماء .

إنه حدث عادى ، ولكن حدوثه فى الريف فى ذلك الزمان البعيد ،جعله غير عادى يستحوذ على اهتمام الناس ، ويثير فضولهم ، وبخاصة أن الحادث ارتبط بفضيحة خلقية دارت حول امرأة من الطبقة العليا فى المجتمع ، قيل إنها هربت من زوجها ، فسقطت بها السيارة مع عشيقها فى مياه الترعة أو البحر العباسى كما يسميه الأهالى .

وقد أعطى للحادث بعداً أكبر ادعاءُ أحد الفلاحين (أبو الفتوح الشرقاوى) أنه عليم بتفاصيله ، ورافق ذلك الادعاء شائعات تدور حول جثث الغرقى التى طفت على سطح الماء بجوار الشاطىء وتتحدث عن الضحايا ومن بينهم النساء الجميلات والأطفال زرق العيون والمشغولات الذهبية .

يتم القبض على " أبو الفتوح الشرقاوى " بعد أن وصلت أنباء ادعائه إلى الشرطة ، وهناك يخضع للتحقيق ، وتحت ضغط التعذيب يضطر إلى المزيد من الكذب كى يرضى سلطات التحقيق ، مما أوقع الشرطة والنيابة فى متاهة لا بداية لها ولا نهاية وكشف عن قصور الأداء الأمنى ، وهو ما تمثل فى إصرار الشرطة على تقديم " متهم " – أى متهم – وليكن أبو الفتوح الشرقاوى ، ثم إغلاق ملف القضية بأية وسيلة ، ولو كانت مخالفة للحقيقة ، فضلاً عن القبض على جميع المشتبه بهم ممن ذكرهم أبو الفتوح فى أقواله ، وفى مقدمتهم أنصار الحركة الإسلامية !.

ويتضح القصور الأمنى العريق فى المفارقة التى تجعل الشرطة تقدم متهماً للمحاكمة دون أن تعثر على الجثة موضوع الاتهام . لقد أفهم الضابط المحقق " أبو الفتوح "

أنه لا يمكن معرفة إن كانت الجثة لقتيلة أو غريقة إلا بعد التشريح بمعرفة الطبيب الشرعى ..." عندئذ قال أبو الفتوح :

-ولماذا لم يتم التشريح ؟؟ .

قال الضابط وهو يرميه بنظرات متشككة متوعدة :

- لأننا لم نعثر على الجثة بعد ...
- كيف ؟ أنتم الحكومة ...
- أنت الوحيد الذى اعترف بأنه رآها .
- ولماذا تهتمون بجثة لم تروها ؟.
- ليس هذا من شأنك ..." (١).

وهذا القصور يتحول إلى مأزق حقيقى للشرطة فيما بعد حيث يوضح طبيعة التفكير الأمنى الذى يفكر فى تقديم " متهم " وحسب ، ولا يعنيه " الظلم أو العدل " ، الذى يعنيه إنجاز العمل وإغلاق الملف :

" قال أحد رجال المباحث المحنكين :

- ماذا يكون موقفنا ، إذا ظهرت عنايات هانم بعد ذلك ؟.

أجاب أحد زملائه :

- احتمال ضعيف .
- لكنه يظل قائماً ، ويحمل تهديداً دائماً لنا .

عاد الزميل يقول فى سخرية :

- إذا ظهرت نقتلها .

---

١ - قضية أبو الفتوح الشرقاوى ".

obeikandl.com

- لاتهرب من الحقيقة .
- أقول نقتلها .
- لن نفعل .
- ولم لا ؟ أنا الطوفان ، ثم إن زوجها الشريجى باشا قد لا يسره ذلك الظهور المحتمل ، لأنه يحمل فى ثناياه فضيحة أكبر..." (١) .

وإذا كان القصور الأمنى ، ومأزق الشرطة يسهمان فى التصعيد الدرامى للبناء الروائى نحو الذروة ، فإن الشائعات – وبخاصة التى تنشرها الصحف – تقوم بدور كبير فى هذا السياق ، فقد استغلت الصحف الحادث ، ونشرته فى صفحة الحوادث دون أن يذكروا اسم " عنايات هانم " بالاسم ، وأكترث من الحديث عن قصة غرام وليال حرام ، وكؤوس وفسوق وفجور ، وأموال ومغامرات وألاعيب سياسية ".

كما تخصصت إحدى شخصيات الرواية " يونس عبده " فى إطلاق الشائعات التى أحدثت صدى عند الناس والسلطة معاً فقد أشاع أن " عنايات هانم " هربت مع ضابط شاب من تلاميذ زوجها ، وأنها تنكرت عند هروبها فى زى فلاحة ،وكان قد أشاع قبل ذلك أن " أبو الفتوح الشرقاوى " قد تعرف على الجثة وأنه شارك فى الجريمة ..مثلما همس قبل ذلك أيضاً بأن شعبان عبد اللطيف قد كرر القول : إنه ما دامت الحكومة لا تريد إقامة شريعة الله ، فعلى الشعب المسلم أن يتولى ذلك . ومن المرجح لدى المحققين أن شعبان هو الذى أفتى بقتل " عنايات هانم البحيرى " وأن " أبو الفتوح الشرقاوى " هو الجلاد الذى أقام " الحدّ "مقابل مئة جنيه . وهناك شاهد اعترف بأن أبو الفتوح فعل ذلك ليدخل الجنة ، ويأخذ المئة جنيه مكافأة حلالاً ! ويفسر ذلك ، بأن شعبان على علاقة

١ - قضية أبو الفتوح الشرقاوى ٦١.

بالإخوان المسلمين ، ويعرف قصة انحراف عنايات هانم منذ زمان .. وكانت نتيجة شائعات يونس القبض على شعبان وآخرين !.

وهكذا تلعب الشائعات التى تجد صدى لدى الناس والمسؤولين دورها فى تعميق الصراع الروائى والتقدم به إلى مستوى الإثارة الفنية ...

ولكن المفاجأة التى أذهلت الجميع هى ظهور عنايات هانم فى البنك لتصرف من رصيدها ، وحاولت السلطات القبض عليها ، ولكنها فرت مع الشخص الذى وصف بأنه عشيقها ..وهناتتعقد الخيوط الروائية ..حيث هناك متهم يعترف بالقتل ، وجثة ومقبوض عليهم غير المتهم الرئيس ، والشرطة فى مأزق ..وهنا تتداخل مصالح وسياسات ورغبات ، تتناولها الصحافة وخاصة الحزبية بالمتابعة والتعليق لتشتعل قضية أبو الفتوح ، وتأخذ أبعاداً أوسع وأشمل . وترتفع الأصوات المطالبة بالإفراج عن " أبو الفتوح " ويتقدم الأستاذ حسن سليم ، المحامى الشهير ، من جماعة الإخوان بمذكرة للنائب العام من أجل الإفراج عنه .

كانت زوجة أبو الفتوح منذ قبض على زوجها ، تسعى من أجل الإفراج عنه ، فتتعرض لعملية احتيال وخداع من جانب " يونس عبده " عامل التليفون الذى جعلها تبيع قطعة الأرض التى تملكها وأبو الفتوح ، لتوكيل محام يدافع عن زوجها ، فإذا بها تكتشف بعد حين أن الأرض آلت إلى يونس ، وأنه لم يوكل محامياً ولا غيره ولم يدفع مليماً واحداً لقطيفة أو للمحامى المزعوم .

وبعد أن تدوخ بحثاً عن حلّ ، تشير عليها إحدى الجارات أن تتوجه ليلاً إلى " الخروبى "الذى اشتهر بكتابة التعاويذ وشفاء المرضى ، وفك أسر المأسورين و زواج العوانس و" فك المربوطين " ولكنها لم ترتح إلى هذا الحل ، إيماناً منها بأن الحكومة تبدو

محصنة ضد السحر والجان ، ولعلها مكونة أصلاً من أناس ينتسبون إلى دنيا العفاريت والشياطين " (١).

بيد أن شعبان عبد اللطيف " وإخوانه يقومون من جانبهم بتبنى قضية "أبو الفتوح الشرقاوى"من حيث توكيل المحامى والأخذ بيد الزوجة وأبنائها ومساعدتهم على مواجهة الظروف الصعبة ...

فى غمرة قضية أبو الفتوح ، تقدم الرواية قصة جانبية تبدو غير وثيقة الصلة بالبناء الروائى وتتعلق بسرقة جاموسة الشيخ المداح ، حيث يأخذ الرجل موقفاً سلبياً " لعل من سرقوها فى حاجة شديدة إليها " ، كما يرفض تقديم بلاغ عن سرقتها ..ولكن الجاموسة تعود وحدها ذات صباح ، وعدّ أهل القرية ذلك كرامة من كرامات الشيخ المداح ، وانطلقت الزغاريد من كل مكان ، وتمتم الشيخ عندما علم بعودة الجاموسة :" المال الحلال لا يضيع ... اتركوها فإنها مأمورة ...." (٢).

وتتلاحق الحوادث حين تستغل الصحف الحزبية الموضوع ، تعلن إحداها أنها ستنشر مذكرات " أبو الفتوح الشرقاوى " ، التى ستطال أطرافاً مختلفة ، وستكشف عن أسرار عديدة مثيرة فيتعرض أبو الفتوح للتهديد والإغراء من أجل الصمت ، وحينئذ يتم تهريبه مع زوجته إلى مدينة القاهرة ، حتى يأتى موعد المحاكمة .

وتفاجئنا الرواية فى النهاية بتغير " أبو الفتوح " ، وتعهده بألا يكذب وانضمامه للإخوان المسلمين (زمن الحرب العالمية الثانية)وفتح شعبة لهم فى القرية كان أبو الفتوح أحد أعضائها ، وقد غمره الفرح عندما عرف أنهم سيعلمونه القراءة والكتابة

١ - قضية أبو الفتوح الشرقاوى ٤٢.
٢ - السابق ، ٦٨.

ويحفظونه القرآن مع غيره من الأميين ..ولم يعلم أن ذلك سيكون باباً لمتاعب من نوع جديد لا تخطر له على بال (١).

لقد حملت الرواية – دون بقية الروايات الأربع – عناوين لفصولها (العاشقة – الجريمة – الاتهام – فضيحة على الملأ- الدليل الجديد ...إلخ ، وكأن الكاتب كان يوحى من خلال هذه العناوين بعملية تصعيد الحوادث وتناميها فى صورة مباشرة ، بيد أن طبيعة الموضوع الروائى ، وارتكازه على الحد ث الرئيس وما يتعلق به (غرق السيارة وفضيحة عنايات هانم ، وارتباط الموضوع بأبعاد سياسية وحزبية وصحفية)قد حافظت على حرارة السرد والتتابع ، وجعلت من تداخل الأطراف المختلفة ، كل فى موضعه وسيلة من وسائل التشويق ، وازدياد الشغف لمعرفة مصائر الشخوص ونهايات الأحداث .

فى رواية ملكة العنب تبدأ الأحداث بالكلام المثير الذى صرح به الشيخ محمد حسب الله إمام المسجد فى خطبة يوم الجمعة حول زكاة العنب ، فالرجل عدّ الزكاة حق الله ويجب إخراجها للفقراء والمحتاجين ، وهنا ثار الغلط بين مؤيد ومعارض ، واستند المعارضون إلى أن العنب لم يرد فى الأصناف التى ذكرتها كتب الفقه ، وقال المؤيدون : إنها واجبة بالقياس إلى زكاة المال . وهدد فريق من الفقراء بأنهم سيأخذون حقهّم إن منعه المزارعون ..وثارت الفتاة " براعم " – ملكة العنب – وهددت الشيخ محمد الذى أثار الناس على أصحاب المزارع ، ولكن الشيخ حاول إقناعها بأن ما يقوله هو واجبه الدينى والعلمى ..

ولم تتوقف المسألة عند هذا الحد ، فقد مُنع الشيخ محمد من الخطابة ، وتدخل المجلس المحلى فى الموضوع ، وأعلن أن الزكاة مسألة شخصية (!) وأن المهم هو أمن البلاد

١ - السابق ، ١١٦.

وتلاحم الجماهير (!) ..ثم تدخلت الشرطة ..وجاء واعظ المركز ليعتلى المنبر وخطب عن الصبر ومناقبه ، والآيات الكريمة التى نزلت فيه ، والجزاء الذى ينتظر أصحابه فى الجنة ، والرضا بقضاء الله وقدره ..

بعد انتهاء الصلاة يطلب الشيخ محمد من الناس الانتظار بضع دقائق ، ويشير إلى تأميم الحكومة للمساجد ، والحياة التى امتلأت بالمحاذير وحكمتها الطوارىء " إننا لسنا ضد النظام ، ولكننا مع الحق ، ونحن لا ننتهك الأمن ، ولكن نمارس حقنا فى الحرية .. ولا نقول إلا ما جاء به ديننا ...." (١).

وتبدو المسألة تسير سيراً عادياً ، والحوادث تمضى بغير حدة ، ولكن تحدث مفاجأة عندما يصيح رجل فى أثناء حديث الشيخ محمد بعد الصلاة ، ويقول يا أهل الربايعة ..قتيل فى عنب براعم "فيحدث هرج ومرج ، ويهرول الناس إلى خارج المسجد .

وبينما ينشغل الناس بالقتيل مصطفى السلامونى وتاريخة الإجرامى بقتل زوجتيه السابقتين ، والحديث عمن يكون قد قتله إذ بمكبر الصوت يعلن بعد تلاوة الآية الكريمة:-

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾)(٢).

عن مقتل شاب فى الثلاثينيات يعمل أجيراً فى العراق أيام حربها مع إيران وأشيع فى القرية أن الجثة بها آثار عنف ، واعتداء جسيم ، وجمجمة مهشمة ، وطلقة رصاص فى الصدر. الميت ابن خالة الشيخ محمد حسب الله إمام المسجد . وصدرت الأوامر بعدم إذاعة التقرير الذى كتبه الطبيب الشرعى . وتساءل الناس :" لماذا يقتل

١ - ملكة العنب ، ٢٢/ ٢٣.
٢ - سورة الرحمن : الآيات ٢٦-٢٧.

العراقيون أبناءنا الذين خدموهم وضحوا أكبر التضيحات من أجلهم أثناء الحرب وقبلها "(١).

وتساءل الناس عن سرّ سكوت الحكومة على جرائم العراق ضد المصريين ، واشتعلت القلوب بالمرارة والأسى والغضب لدرجة أن العمدة ، ضرب كفاً بكف وتساءل :

" هل التستر على الجرائم سياسة ؟ لقد أصبح الفساد ينخر فى كل شىء داخلياً وخارجياً ، من سيدفع دية هذا القتيل أو يعطيه حقه ؟" (٢).

وتتصاعد الحوادث نحو الذروة حين تتحول جنازة القتيل العائد من العراق إلى مظاهرة ضد "صدام حسين "والحكومة وإسرائيل وأمريكا . ويحضر الأمن المركزى بأسلحته وهراواته وقنابله المسيلة للدموع ، فيفرق المظاهرة / الجنازة ، ويفر الجميع عدا الشيخ محمد الذى يبقى بجوار جثة ابن خالته ، فيتم القبض عليه مع أربعين آخرين ، من أهل الربايعة ، ويقول له أحد الضباط فى خشونة : " – أنت ملتح ..وتقود المظاهرة ..لا بد وأنك من الجماعات الإسلامية ..

ثم أشار إلى العسكر :

- ضعوا (الكلابشات) فى يده ، وساقوه إلى السيارة !.

قال فى استسلام :

- ليس هذا بجديد عليكم ..افعلوا ما شئتم يا أبطال الطوارىء "(٣).

١ - السابق ، ٣٨.
٢ - نفسه .٣٩.
٣ - ملكة العنب ، ٤٠.

تثير تصرفات أجهزة الأمن كثيراً من السخط والاستياء والغضب ، وتضاف إلى مأساة قتل الأبناء فى العراق وشحنهم جثثاً مشوهة إلى الوطن ، وقد أثارت هذه التصرفات رمز السلطة فى القرية ، وهو العمدة الذى قال لقائد الحملة التأديبية :

"- انكم ياباشا تسيئون إلى أنفسكم وإلينا ..

قال الضابط فى عنجهية :

- أنت يا عمدة لا تعرف الأبعاد الحقيقية لما جرى .
- بل أعرف .
- ماذا ؟
- أهل القرية شعروا بالحزن و الغضب من أجل ولدهم الضحية ، وهذا أمر طبيعى جداً .
- الحزن فى القلب يا عمدة وليس بالمظاهرات .
- لم تحدث مظاهرة بالمعنى الصحيح .
- فماذا تسمى ما جرى ؟؟.

جنازة ..جنازة حارة لا أكثر ..الناس فى القرية عندما يحزنون – يلطمون الخدود ويشقون الجيوب ويلطخون وجوههم بالطين ..لكن ما حدث اليوم كان جنازة متحضرة .

- لقد هتفوا ضد الحكومة يا عمدة .
- ليكن ..
- كيف تقول هذا الكلام ؟ إنها مؤامرة ، ونعرف من دبرها ، وسنقدمهم لمحكمة أمن الدولة ..

وستذهل عندما تقرأ اعترافهم "[١].

وقد وفى الضابط بما قال ، وكانت تحقيقات ، وكان تعذيب وحشى بشع تعرض له جميع المعتقلين وعلى رأسهم الشيخ محمد حسب الله إمام المسجد ، الذى عُدّ رئيساً للتنظيم المتطرف ، والشيخ أبو المجدشاهين ، الرجل الصالح الذى أخذوه من بيته .إن الرواية تكسر قتامة هذا الجو ، عن طريق تقديم نموذج يقدم الحكمة الساخرة ، إنه نموذج الحشاش المدمن " الراعى كشكل " الذى يكشف التحقيق معه عن مفارقات عجيبة فى موقف عامة الشعب من الحكومة ، حيث تعدّ الحكومة دائماً على حق [٢].

ويضاف إلى هذا موقف السلطة من نواب الأمة ، فقد تعرض نائب الدائرة الذى تضامن مع أهل الربايعة إلى إهانات بالغة من الضباط والعسكر ، وعندما شرح ما جرى له فى مجلس الشعب ، قابله نواب الحكومة بالصياح والاستنكار، وتحت ضغط الأغلبية وتعليقات وزير الداخلية اللاذعة ، أمر رئيس الجلسة بالانتقال إلى مناقشة قضية القروض الخارجية المتفاقمة !.

تقوم " براعم " الفتاة الطيبة ببذل الجهد والمال من أجل الإفراج عن المعتقلين ، وتستعين بالمحامية الواصلة " سعاد الدباح " ، ويتم الإفراج بالفعل ، ولكن بعد أن اجتاحت القوات العراقية دولة الكويت ، وتغير الموقف الرسمى للحكومة من صدام حسين !.

وهنا تبدأ الحوادث فى الهبوط من الذروة ، إلى موقف يصمم عليه الناس ، وهو تطبيق الشريعة فيما بينهم ، دون أن يعبأوا بملاحقة أجهزة الأمن لهم ، واتهامهم بتكوين " بيت مال الأمة" بناء على تحريضات رئيس المجلس المحلى المنحرف .

---

١ - السابق ٤٣.
٢ - راجع الرواية ص ٧٤-٨٠.

ويتحقق زواج الشيخ محمد حسب الله من براعم ملكة العنب بعد عقبات يضعها أقاربها فى شنراق ، وتبدأ مرحلة جديدة فى حياة الربايعة وأهلها .

وهكذا يبدو البناء الروائى للحوادث متماسكاً فى روايات نجيب الكيلانى ، بل كل حادثة تؤدى إلى الأخرى بانتظام منطقى ، مما حقق شرائط الحيوية للروايات وأشخاصها وحوادثها . وفى الوقت ذاته جعل القارىء يتابع متلهفاً مصائر الشخوص ونهايات الحوادث ، بعد استغراق مشاعره الذاتية ..

سبقت الإشارة إلى أن الكاتب اعتمد على السرد بضمير الغائب ، وهى طريقة لها ناحية إيجابية ، تتمثل فى قدرته على السيطرة على الحوادث وانتخاب ما يتلاءم منها مع موضوعه ، وحشد التفاصيل فى إطار منظم ومتناغم ، ولها ناحية سلبية حيث تعرض النص الروائى لما يمكن أن يسمى بالملل أو الرتابة أو برودة السرد ، مما يجعل القارىء ينصرف عن النص ، ويسقطه من حسابه فى المتابعة واستكشاف محتواه ، والتعرف على غايته ..

وقد أفاد نجيب الكيلانى من قدرته الفنية العالية ؛ نتيجة خبرته الطويلة فى الكتابة القصصية ، لتلافى الناحية السلبية ،إذ إن طبيعة الحوادث التى اختارها وعملية ترتيبها ، مع تلوينها بالمفارقات والطرائف الاجتماعية ، قد حققت له تماسك البناء الروائى ، وأعطته إمكانات كبيرة للإثارة الفنية ، كما يسرت له قدراته اللغوية والأسلوبية انسياباً متدفقاً ، أسهم مع العناصر الأخرى فى تقديم بناء قصصى متكامل وجميل ، يجمع إلى تفوق الحرفة سلامة التصور.